الأنوار
بيروت - الأربعاء ١٣ آب ٢٠٠٨ - السنة ٤٨ - العدد ١٦٨٩٥
Beyrouth -Mercredi 13 Août 2008 - 48e Année - No.16895

الحظ... واقع ام حلم؟ وهل من سبيل لنكسبه؟

■ المهندس شربل معوّض

غالباً ما نبني أمنياتنا على الحظ، نترقبه في أعمدة الصحف والمجلات عند زاوية «اعرف حظك» من الابراج.. نراه في منازل عديدة، كذلك على رفوف بعض المحال والمتاجر، أو حتى في مواقع الانترنت، على شكل طلاسم ومقتنيات (Lucky Charms او Porte Bonheur)، ونبني بموجبه قصوراً من احلام مع كل ورقة يانصيب نختارها... فهل من سبيل لنكسب الحظ وليفاً على مدى حياتنا؟!

يعتقد البعض أن حظه جيد، فيما البعض الآخر يظن العكس، وكثيراً ما تتقلب الآراء بحكم الظروف، ولكن كيف توزع «حصص الحظ» على بني البشر، وعلى أي أساس؟ هل الحظ واقع أم حاجة نفسية اشبه بالوهم؟ وهل هو قوة غريبة ترتبط مثلاً بمواقع الكواكب والنجوم، فتتلاعب بأحداث حياتنا وتتحكم بها بمزاجية؟ وما هو بالتالي دور الطموح والمجهود الفردي والمثابرة؟!...

ميخائيل نعيمة

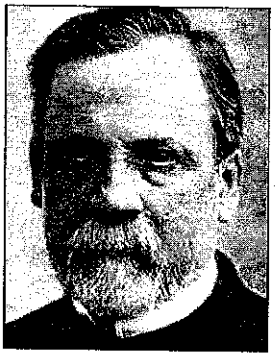
لوي باستور

لفتني رأي العالم الكيميائي الفرنسي لويس باستور في كتاب «the Life of Pasteur» للكاتب René Vallery - Radot من خلال طرحه السؤال التالي: «هل لاحظتم يوماً من هم الذين يتعرضون للحوادث الأليمة؟» ثم استطرد «ان الحظ يفضل أصحاب العقول المستعدة» (Chance Favors the Prepared Mind) ما يعني ان ما نسميه الحظ الجيد برأي العالم لويس باستور، يرتبط بالجهوزية الفكرية. فكيف نفهم ذلك؟

الى جانب ما تقدم لفتتني اقوال اخرى عن الحظ، أهمها ما يعود للكاتب اللبناني الكبير ميخائيل نعيمة «الصدفة والحظ لكسالى العقول»، فيما علوم الايزوتيريك (أو علم الوعي الانساني) توضح أن الصدفة والحظ يعبّران عن الاعتباطية في نظام الحياة، في حين ان النظام هذا يعبّر عن منتهى الدقة، «فالمصادفة لا وجود لها في قانون الحياة... ولا الحظ... ولا حتى الموهبة... فكل ما نلقاه من لذة وسعادة... ومن بؤس وشقاء... هو نتيجة سبب ومسبّب، يستقر في اغوار كل منا! فكل شيء قائم على نظام أدق من أن تتسرب الشعرة اليه...» هذا ما جاء في كتاب الايزوتيريك الخامس والعشرين بعنوان «مذكرات انسان».

الهة الحظ «فورتونا»

في مسألة جهوزية الفكر، تشرح علوم الايزوتيريك، «ان المعرفة لا تطرق باب المدارك ان لم يسعَ المرء بنفسه اليها، والفكر هو وسيلة السعي»، كما توضح هذه العلوم ان النضج الفكري المضمّخ بمشاعر الرقة هو العمود الفقري لتوازن النفس التي لا تعود تستسلم للحظ، او تقع في متاهاته... كما يوضح الايزوتيريك ايضاً ان مثل هذا التوازن النفسي القائم على القوة الفكرية هو تقنية حياتية يمكن لأي فرد ان يحققها في حياته... وهذه تُعرف بالتماهي او التماثل (Simulation)، أي تخيُّل موقف صعب أو مشكلة عويصة ومحاولة حلها فكرياً. فالتدريب على التماهي يساعد المرء على تخطي التجارب والمواقف الحياتية نظرياً، قبل خوضها عملياً على ارض الواقع. وكلما توسّع المرء من خلال عملية التماهي في تحليل كافة الاحتمالات التي قد تحدث، ثم تعمّق في التمييز بين المواقف المشابهة، كان وقع الاحداث خفيفاً نسبياً عليه، فتهون عملية احتواء التجربة والتفاعل معها بدل الانفعال حيالها. تماماً كحال التلميذ المجتهد الذي يعالج المسائل الأكثر صعوبة خلال فترة الدراسة، وعندما يحين الامتحان يجده يسيراً... فلا يكون بذلك الأوفر حظاً، بل الأكثر مثابرة وجهداً بين زملائه.

من التقنيات المهمة الاخرى، العمل على ازالة السلبيات من النفس وادخال الايجابيات مكانها. لعل أهم هذه السلبيات يمكن اختصارها في ثلاثية «خوف - خجل - تردد»، بحيث أن ازالتها تعني تقوية عنصر المواجهة في النفس كشرط اساسي لنقل النجاح في التجارب من حالة فكرية نظرية الى حيّز الواقع تطبيقاً عملياً. اضف الى ان الفكر المنظم والمنفتح كفيل بتحسين حياة المرء من خلال تحقيق الراحة والاستقرار للإرتقاء في العمل وحل المشاكل وتنظيم المتوجبات اليومية الخ... فجميعنا نتمنى ونحلم بالراحة والاستقرار والنجاح، ولكن عندما نضع هيكلية فكرية لأحلامنا يستحيل الحلم طموحاً، وعندما نضع مدة زمنية محددة لتحقيق ما نطمح اليه يصبح الطموح خطة عمل ننقلها الى حيّز التطبيق العملي، فتتحول احلامنا الى أهداف واقعية ممكنة... على هذا المستوى لا يعود مهماً ان ننجح او نفشل بل ما نحصده من وعي وخبرة ونضج ونحن نتحمل مسؤولياتنا الحياتية المختلفة... وفي خضم ذلك تبقى المثابرة كفيلة بتحسين «حظنا»، الى أن نستدرك أن «الحظ» كما لا يفهمه السواد الأعظم من البشر، هو حليف من يرتفع فوق العقبات ويجتهد ويكافح في الحياة، بهدف تحسين نفسه والارتقاء بوعيه الفردي.

ان فكرة الحظ تتنافى والمنطق السامي للأمور، فمعاذ ان يعرف نظام الحياة العشوائية، وحاشا للعدل الألهي ان يكون ظالما. ففي النظام هناك نتيجة ينطوي وراءها سبب، او «سبب ومسبّب» كما تشرح علوم الايزوتيريك في ضوء مفهوم قانون الفعل وردة الفعل الذي يجيب عن كل تساؤل ويجلي كل غموض في هذا السياق. فهذا القانون هو بايجاز قانون السبب والنتيجة، قانون الثواب والعقاب ما يعني ان اعمال الإنسان هي السبب في ما يصيبه من خير او شر، من سعادة او شقاء، من صحة أو مرض، وحتى من حظ او لاحظ!

لا يبدو ان للحظ وجوداً في قاموس الحياة وقانونها. فحتى علوم الرياضيات وبالتحديد فرعي الإحتمال والإحصاء (Probability & Statistics)، تبرهن لنا بالمعادلات العلمية الحسابية، ان نتيجة احجار النرد لا تعرف الحظ! فعلوم الرياضيات تشرح بأننا حين نرمي حجري نرد او أكثر، لعدة مرات، تتبع نتيجة الأرقام التي نحصل عليها في كل رمية معادلة أو نمطاً معيناً يُعرف بمنحنى غوشن (Gaussian Curve)... بالتالي حتى نتيجة احجار النرد ليست عشوائية كما يسود الاعتقاد...

كل شيء في الطبيعة يسير بحسب نظام لا يعرف الفوضى، بدءاً بحركة الشمس والكواكب، وصولاً الى الفصول الاربعة، ومروراً بنبض الحياة في الكيان الانساني، فلا بد اذاً لأحداث حياتنا ان تتتالى بموجب نظام التطور في الوجود ولهدف معيّن يخص كل فرد، كما يخص البشرية ككل... والمفتاح الى ذلك هو الصدق مع النفس في مواجهة الحقائق في تفاصيل حياتنا اليومية... ففهم هذه المعادلة كفيل بتحويل الحياة الى رحلة ممتعة من البحث والإكتشاف، وان تخللها التحدي الذي لا بدّ منه لشحذ الطموح، وترسيخه في النفس...